الـــريف

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

أرانى كلما فسد الجو ، وكثر تقلبه ، وعز الاطمئنان اليه ، أميل إلى الخروج إلى الصحراء أو الريف ، ولا أطيق القعود فى البيت ؛ ولست أعرف لهذا المزاج — الشاذ فيما أعتقد — تعليلاً يسكن اليه العقل وتستريح اليـه النفس . فأما أنه مزاج شاذ فأعرفه من صياح أهلى حين يروننى أرتدى ثيابى والمطر منهمر والريح تعصف ، وأهم بالخروج ؛ ولست أراهم علون أن يقولوا لى : « يا شيخ ، ما هذا الجنون ؟ تخرج فى هذا المطر !! أما إن هذه لحكاية ! اقعد ... اقعد ... نضرم لك الفحم ، ونشوى « أبا فروة » أو نمص القصب ونحمـد الله على وقاية الجدران » فأهز رأسى وأقول : « ما أحلى هذا ! ولـكنى لا أطيق المكث هنا على حبى له بينكم ، ولست أحب أن أفارقكم لحظة ، وإنه ليعز على ألا تأخـذكم عينى فى حيثما أكون ، ولـكن نفسى أمارة بالسوء ، أو بالحماقة ، أو بمـا شئتم غير ذلك . فاذا كنتم تحبوننى فتعالوا معى ... فان الفضاء رحيب ، والصحراء واسعة ، وهاتوا القصب معكم ، وأبا فروة أيضاً ... نضع هذا كله فى السيارة ونمضى بها ... قوموا »

ولـكنهم لا يفعلون ، فأمضى وحدى وأعود بزكام أو برد ، ولـكنى أعود مستريح النفس هادئ الأعصاب !

وقد كنت أقول لصـديق لى منذ بضعة أيام ، وهو من أصحاب العقول المثقفة ، والنظر البعيـد ، والغوص الشديد : « يا أخى ، لماذا لا يحب المصريون الريف ؟ »

قال : « وكيف لا يحبونه وهم لا يبرحونه ؟ »

قلت : « إنما أعنى أهل المدن — القاهرة مثلاً — قلما يخطر لهم أن يقضوا أيام البطالة والفراغ من العمل فى رحلة إلى الريف »

قال : « وأين تريد أن يذهبوا ، وليس فى الريف لغير أهله مذهب أو مقام ؟ »

قلت : « هذا هو سؤالى ... لو كان الناس عنـدنا يحبون الريف ويطيب لهم أن يقضوا فيه كل ما يسمهم أن يختلسوه من الوقت ، لتغير حال الريف ، وتكيف على مقتضى هذه الرغبـة ، وصار لغير أهله فيه مذهب ومقام »

قال : « ربمـا » وانقطع كلامنا فى ذلك

ولـكنى لم أكف عن التفكير فيـه ، وقد أدرت عينى فى شعوب البحر الأبيض فاذا أكثرها كأهل مصر ، ليس لهم « غرام » أو « عشق » للريف أو ما يسمى « الطبيعة » ، فالروم والطليان والفرنسيون والأسبان ، كلهم على شاكلتنا : الحضرى منهم يبقى فى المدينـة ولا ينشد الريف أو يحن اليه ؛ والريفى فى قريته ، يندر أن تنزع نفسه إلى تركها أو التطواف بعيداً عنها . ولا نكران أن هجرة أبناء هذه البلاد إلى الأقطار الأخرى غير قليـلة ، وفى مصر وحدها منهم عشرات الألوف ، أو مئاتها ؛ ولـكن الهجرة تجىء عن اضطرار لا عن رغبة ، والباعث عليها الحاجة ، فلا دخل لهذا فيما أقول عنهم من ضعف ولوعهم « بالطبيعة »

وأكثر الأجانب هنا يتخذون مساكنهم فى قلب المدينـة ولا يبعدون بيوتهم عن أماكن عملهم بعـداً يكلفهم مشقة أو يجشمهم عناء ونفقة ، ما خلا الانجليز ، فان الرجل منهم يكون عمله فى شبرا ، فيتخذ بيته فى أطراف مصر الجديدة أو فى الزمالك على النيل ، أو فى الجيزة على طريق الهرم ، ولا يبالى ما يضيع من الوقت فى الذهاب والاياب ، ولا يحفل ما يكلفه هـذا البعد من النفقة . وقلما يقضى يوم بطالة فى بيته إلا إذا كان مريضاً . وليس بالنادر أن ترى الواحد منهم يحمل فى سيارته خيمة وطعاماً وشراباً يكفيان أياماً ، وفراشاً أيضاً للنوم والجلوس ، وأدوات للعب ، ويذهب بذلك كله إلى السويس مثـلاً ؛ ولو شاء لأعفى نفسه من هذا العناء كله ، فان يعـدم فندقا يبيت فيه ، ولـكنه يضرب خيمته على ساحل البحر أو فى الصحراء ويقضى أياما ناعما بالعزلة والوحدة وبما حوله من وجوه الأرض أو الماء ، ويروح يمشى بضعة فراسخ كل يوم ... وقد يكون وحده ، فلا يشعر بوحدة ولا تخطئه سكينة النفس ، وقد يكون معه غيره ، فلا تراه — فيما يبدو لك — شاعرا بأنس يفتقده فى وحدته ، فكأن أنسه كله بالمحل لا بالرفقة .. ومن المتع التى يحرص عليها أن يكون له بيت أو كوخ — سيان عنده — فى مكان ريفى بعيد يذهب اليـه كلما وسعه أن يخلو من مشاغل العمل . فهو فى هذا نسيج وحـده . ولا يمنعه المطر أو الأعصار أن يخرج فى ثياب السهرة ليتمشى ويرقص ويحيى الليل على أسعد حال ، ولا

بقمده البرد فى بيته كما يقمدنا — حتى فى بلاده التى لا أعرف أسخف منها جواً ، ولا أبعد عن الاعتدال ، فهو هناك كعهدنا به هنا

وأهل الشام على خلاف أهل مصر ، فانهم كثيرو الخروج الى الرياض والبساتين ؛ حتى «فهواتهم» أو «مقاهيهم» . كما يريدوننا أن نسميها — قلما تكون إلا فى بستان أو كما يقول ابن الرومى : «فى» ميادين يخترفن بساتيـ ـن تمس الرؤوس بالأهداب[1]

ولا أعرف كما قلت تعليلاً لهذا الاختلاف فى الطباع ؛ وأحسب أن اعتـدال جو بلادنا على العموم يحمل على الرضى بالوجود ولا يغرى بغشيان غيره . ولماذا يشتاق ساكن المدينة الى الريف وليس فى المدينة ما يزهده فيها ويدفعه الى الخروج منها والتماس ما هو أخف محملاً ، وأكفل براحة النفس وسكينة الأعصاب ؟ ومما يساعد على القناعة ويبعث على القعود أن التنوع مفقود ؛ فالذى يترك القاهرة لا يتوقع أن يستفيد متعة يخطئها فيها ؛ والمناظر فى الريف واحدة أو هى متشابهة ، فلا جبال هناك ولا غابات ولا أحراج ، ولا غير ذلك مما يحرك الخيـال فيحرك النفس ، ولا اختلاف هناك يجعل للنقلة لذة ترجى . والريف من مصر قريب ، فهو معروف غير مجهول . والصحراء حولها من بعض جهاتها فلا موجب للتخيل ، ولـكن الانجليزى شأنه غير شأننا ، فأن جو بلاده دائم التقلب ، وهو مع تقلبه السريع سخيف غير مأمون ؛ وقد يكون هذا مما يدفع الانجليزى الى اشتياق الريف ويغريه بتصور سحره ويبعثه على التماسه ونشـدانه حتى ولو تكررت خيبة أمله فيه

وأم البحر الأبيض شبيهة بنا من حيث المزاج ، وجوها أقرب الى الاعتدال من جو الشمال ؛ ومن هنا فيما أظن مشاكلتها لنا فى هذه الطبيعة ، ولست أرى وجوه الاختلاف تؤثر فى هذا ولا تكران أننا تغيرنا . فكثير بيننا الذين يطلبون الريف أو الصحراء ويؤثرونهما على المدن ، ولـكننا نفعل ذلك على سبيل التقليد ومن قبيل المحاكاة وبفضل التثقيف الحديث والاتصال الوثيق بالغرب لا بدافع من الفطرة وحافز من الطبيعة . ومثلنا فى هذا أم البحر الأبيض فقد ذهبت تقلد أم الشمال كالانجليز والاسكندناويين والألمـان ، وراحت تتكلف حب الطبيعة حتى لصارت تبدو كأن هذا فيها طباع ، وما هو بذاك

ابراهيم عبد القادر المازنى

(١) البيت فى الأصل « من ميادين الخ »

الخليفة العزيز بالله

وزوجه النصرانية وأصهاره البطاركة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ليس غريباً أن نقرأ فى التاريخ الاسـلامى أن خليفة من الخلفاء قد ولد من أم نصرانيـة أو أنه قد تزوج من نصرانية وله بين الأصهار النصارى أصهار ولأولاده منهم أقارب ؛ ولـكن ربما يبدو غريباً أن يقترن خليفة مسلم بنصرانية تنتمى إلى أسرة من الأحبار ، وأن يكون له بين أحبار الـكنيسة أصهار ، ولولده منهم أقارب وخؤولة : تلك هى حالة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر ، ولد المعز لدين الله ، ووالد الحاكم بأمر الله

كانت الخلافة الفاطمية منـذ قيامها بمصر تتشح بصبغتها المذهبية العميقة ؛ بيد أنها رأت أن تتبع نحو الذميين من النصارى واليهود سياسة التسامح الحر ؛ وظهر أثر هذا التسامح جلياً فى علائق الذميين بالدولة ، وفى ارتفاعهم إلى أرقى مناصبها ؛ بل نرى فى خـلافة المعز لدين الله وولده العزيز ثبتاً حافلاً من الوزراء والـكتاب النصارى واليهود يحتلون أرفع المناصب فى البـلاط وفى الحـكومة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية وأعظمهم يهودياً اعتنق الاسلام ، وهو الوزير يعقوب بن كلس ؛ وفى عصر العزيز كان مدبر الدولة وكبير الوزراء نصرانى هو عيسى بن نسطورس ؛ وكان متولى أعمال الشام يهودياً يدعى منشا ؛ وفى عهـد المعز والعزيز أنشئت كنائس وأديار كثيرة ؛ وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته فى عصر العزيز حيث استولى الوزراء والـكتاب الذميون على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ، وقد كان لهذه السياسـة المتطرفة فى التسامح والعطف أثر سيء فى المجتمع المصرى ؛ وتنقـل الرواية إلينا فى ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم فى طريق الركب الخلافى امرأة تمد بيدها رقعة كأنها ظلامة . فتناولها ، فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزارا ، وإذا فى الرقعـة ما يأتى : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصـارى بعيسى